اللغة والفكر والمعنى

بقلم
د/ محمد بوعمامه
أستاذ محاضر في اللغويات بقسم اللغة العربية
جامعة باتنة. الجزائر



ملخص :

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح مفهوم " العلامات اللغوية " بوصفها أهم الوسائل في حقل التواصل الإنساني، كما تركز على توضيح العلاقة القائمة بين هذه العلامات اللغوية والفكر، وبين هذا الأخير والمعنى، وذلك من خلال عرض آراء الفلاسفة واللغويين وعلماء النفس .

Résumé

Cette étude a pour but de clarifier le concept de « signes linguistiques » en tant que moyen trés important dans le champ de la communication humaine . Elle a pour but - aussi – de demontrer la relation entre ces signes linguistiques et la pensée,et entre cette dernière et la signification , et cela a travers les idées des philosophes,linguistes et psycholinguistes .

أولا: حاجة الإنسان إلى اللغة

من المعلوم أن الإنسان " أرقى أنواع الحيوان وأوسعها إدراكا وبسعة إدراكه كثرت حاجاته كثرة لا يستطيع الاستقلال بها وحده، فاحتاج إلى التعاون مع بني قومه، لكن هذا التعاون يحتاج إلى تفاهم، وإلى أن يعرف كل من المتعاونين ما عند الآخر، وإلا تعذر العمل، فهو بذلك يحتاج إلى واسطة للتفاهم، وقد منحه الله قوة النطق، وهو أخصر طريق للإفهام وأوفاه بالمراد، فلِم لا يكون به وفاء الحاجة " (1).

غير أن هذه الحاجة كانت في بداية الأمر بسيطة، لم تتعد حدود تلبية المتطلبات التي تقوم عليها حياته من مسكن ومأكل، وملبس، ومن ثم فالألفاظ المستعملة آنذاك كانت على قدر هذه المتطلبات .

لكن، بما أن الإنسان بطبعه يميل إلى المعرفة . ونعني بذلك معرفة ما يحدث في العالم المحيط به . فإنه دائم البحث على استكشاف كل ما من

شأنه أن يساعده على تحسين ظروف معيشته، فراح ينقب في الطبيعة محاولا معرفة أسرارها غير المحدودة فتوسعت . تبعا لذلك . مداركه، وأصبحت حاجته إلى اللغة أكثر من ذي قبل.

ونتيجة لذلك نما معجمه اللغوي نموا كبيرا، نتج عنه تنظيم أموره تنظيما محكما فتكونت . بالتالي . عشائر وقبائل، لكل منها حياتها الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، ثم توسعت تلك العشائر والقبائل لتصبح أمما متعددة.

ولا يخفى علينا . تبعا لهذه المعطيات . ما حدث من تطور عبر الأزمنة المختلفة إلى أن وصل الإنسان إلى ما هو عليه من التمدن والتحضر، فتشعبت مسالك حياته وتعقدت، وصار لزاما عليه مجاراة هذا الزخم الحضاري، فسطر قوانين ودساتير، كما استحدث وسائل وآلات كثيرة، وكان من نتيجة هذا كله أن تطورت لغته وكثرت ألفاظها وتعددت دلالاتها، حتى إننا لنجد للفظة الواحدة عدة معان وللمعنى الواحد عدة ألفاظ.

وهكذا نجد أن حاجة الإنسان إلى اللغة أمر لا مفر منه، وشرط من شروط تواصله مع الآخرين، وأحد المقومات الأساسية لاستمراره وبقائه. ويلاحظ أن نحت تعابير جديدة سببه التطور الذي مر به الإنسان عبر الحقب التاريخية المختلفة، وسبب هذا التطور هو النزوع نحو حياة أفضل، وذلك عن طريق المخترعات العلمية، والنظم الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية. وقد سجل كريستوفر نيروب K.Nyrop هذه الحقيقة في مقدمته العامة لتاريخ نحو اللغة الفرنسية فقال: « سواء أكان السبب اختراعا علميا، أم تطورا صناعيا، أم حركة فكرية، أم طريقة جديدة للإحساس أو الفهم، أم إثراء للمجال الأخلاقي، أم تحويرا في الحياة الاجتماعية، فإن الإبداع اللغوي مطلوب جدا. وكل إنسان يخترع ألفاظا جديدة، سواء أكان عالما أم جاهلا، عاملا أم عاطلا، طبيبا أم فنانا »[(2)].

يحتاج الإنسان إلى اللغة . كذلك . بوصفها أداة تفكير، وبواسطتها ينقل أفكاره إلى الأفراد الآخرين في جماعته. يحتاج إليها لأنها هي كيانه وشخصيته وهويته، وطبيعي أن لا كيان ولا شخصية ولا هوية دون لغة. فاللغة هي الإنسان، والإنسان هو اللغة. « فلئن اندرج الإنسان في جنس الحيوان تبعا لمقتضيات التصنيف المتدرج في الكائنات، فإنه بالكلام ينفصل عن الحيوانية ليتفرد بنوعه، فيكون الكلام بذلك جوهر الإنسانية في الإنسان . لذلك يلح المنظرون على سمة الانفصال بين الحيوانية والإنسانية ابتداء

من الحدث اللساني . ففي الكلام فضل الإنسان على سائر الحيوان وتكريم الخالق له، وبالكلام يخرج الإنسان من حد البهيمية إلى حد الإنسانية »[3] .

غير أن القول بأن الإنسان حيوان ناطق يعد إجحافا في حق هذا الكائن الذي فضله الله على سائر الكائنات الحية الأخرى ليس بالنطق فحسب، إنما بالتفكير وبالشخصية، ومن ثم يحق لنا أن نقول : الإنسان حيوان مفكر وذو شخصية .

ثانيا : حقيقة اللغة :

رأينا قبل قليل أن اللغة وسيلة تعبير، واتصال، وتبادل للخبرات والمعلومات بين الناس، فضلا على أنها أداة تفكير، وتعبير عن الأحاسيس والعواطف، وبمعنى آخر:اللغة هي محور الحياة الاجتماعية والفكرية والوجدانية.

لكن، ما حقيقة اللغة؟ وكيف يمكن لنا أن نربط بين اللغة كأصوات وبين الفكر كتصورات؟ وهل نكتفي بالقول أن اللغة هي تعبير عن الأفكار، أو أنه يجب البحث في مصدر هذه الأفكار وكيفية ترجمتها إلى الواقع بواسطة اللغة ؟

هذه أسئلة لابد أن لها مبرراتها العلمية، وتحتاج إلى الاستدلال بأدلة علمية منطقية، وحجج دامغة تنكشف على إثرها حقيقة اللغة وصلتها بالفكر والمعنى .

يعرف ابن جني اللغة بأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[4] . وهذا التعريف يشمل . كما نلاحظ . أربع قضايا جوهرية وهي : الأصوات، والوظيفة، والطابع الاجتماعي للغة، والطابع النفسي .

والشيء الملفت للانتباه في تعريف ابن جني للغة هو أنه أدرك بفكره الثاقب أن اللغة «أصوات » قبل أن تكون « كتابة »، وهو رأي ذهب إليه كثير من علماء اللغة المحدثين . فهذا دي سوسير De Saussure يعرف اللغة بأنها نظام من الرموز الصوتية التي تعبر عن الأفكار[5] . ويذهب يسبرسن Jespersen إلى أن اللغة أساسها الفم والأذن وليس القلم والعين[6] .

وهناك تعريفات أخرى كثيرة تؤكد على طبيعة اللغة الصوتية ووظيفتها الاجتماعية . فهذا روبنز Robins يعرفها بأنها نظام من الرموز الصوتية الاعتباطية، والقابلة للتغير والتكيف تبعا لظروف المجتمع[7] . ويعرفها كارول Caroll بأنها أصوات عرفية منطوقة تستعمل في التعامل بين الأفراد[8] .

في حين يعرفها كل من بلوخ Bloch وترايجر Trager بأنها نظام من الرموز المنطوقة الاعتباطية التي تتعاون بها فئة اجتماعية [9].

نخلص من هذه التعريفات كلها إلى أن اللغة ليست مجرد أصوات تنطق وتسمع، بل هي « وسيلة الإنسان في التعبير، أوجدها لينزل المجهول إلى مرتبة المعلوم، وبها ينتصر على أسرار الكون ومشاكل الحياة اليومية. وباللغة يعبر الإنسان عن التصارع القوي في ذاته، وبها يعبر عن النسيان ومضامين الفكر ويجعل ما وراء الطبيعة موضوعا متناولا، وفكرا متبادلا بين الأجيال » [10].

نعم، هذه هي حقيقة اللغة : صورة صوتية، ووظيفة اجتماعية، وأداة للتعبير عن مضامين الفكر. لكن بماذا نعلل التواصل Communication الذي يتم دون هذه الأداة، أي اللغة كأصوات؟ فهناك الإشارات والرموز الكتابية التي تؤدي الوظيفة نفسها التي تؤديها الأصوات سواء بسواء، ومن ثم يمكننا أن نتساءل مرة أخرى : هل مثل هذه الإشارات والرموز الكتابية داخلة في نطاق اللغة أو هي خارجة عنها؟

فأحيانا يحاول الإنسان أن يعبر عما يجول في ذهنه من أفكار فتعوزه الكلمات، ومن ثم يستعين بالإشارات التي قد تكون باليد، أو بالرأس، أو بالعين. وعلى هذا الأساس تنقل الإشارة " التواصل من ميدان القول إلى التخاطب الصامت، إلى الإيماء. ويحدث الإيماء حوارا دقيقا مبينا قلما يحصل فيه سوء تفاهم بين المتحاورين. الإيماء خطاب بليغ، ولكن بدون كلام ملفوظ [11].

وهذه الإشارات عبارة عن حركات إرادية تصدر عن الإنسان بغرض التعبير عن تصورات فكرية خاصة . فهو يميل إلى الاقتصاد في الجهد العضلي، ويختصر أفكاره في كثير من المناسبات برموز تدل عليها . غير أن اللجوء إلى مثل هذه الإشارات ت في كثير من الحالات. لا يعني عدم وجود الكلمات،بل هناك أسباب أخرى منطقية نوجزها فيما يلي:

1 . **الخوف** : ومعنى ذلك أن الإنسان قد يصادف موقفا لا يستطيع أن ينبس فيه ببنت شفة، ومن ثم يلجأ إلى مثل هذه الإشارات . ولنضرب مثالا على ذلك بجماعة من الأشرار تقوم بسرقة منزل أو محل أو أي شيء آخر. فمن المؤكد أن زعيم العصابة يقوم بمعاينة أولا، ثم يشير إلى أصحابه بإيماءة بالرأس أو بإشارة باليد، أن ادخلوا فلا أحد هنا . هذا بالإضافة إلى الإشارات الدالة على توزيع المهام، بحيث يشير إلى أحدهم أن يدخل من هذا الباب، وإلى الآخر من الباب الذي يليه، وهكذا إلى أن تتم العملية .

2 . **صرف الانتباه** : لنفرض أن شخصا ما يطالع كتابا، أو يحل مسألة رياضية، أو يستمع إلى نبأ هام وبالمقابل هناك شخص آخر يكلمه، فمن المؤكد أن الأول لا يرد على الثاني بالكلمات، بل بإشارات تعني : أمهلني قليلا، أو لا أعي ما تقول، إلى غير ذلك .

3 . **أعراض مرضية** : كأن يكون الإنسان مريضا باللوزتين، أو بالضرس، أو بالتهاب في اللثة أو في اللسان، أو غيرها من الأعراض المرضية التي تحول بينه وبين استعمال الكلمات.

4 . **العجز** : ومعناه أن يكون الإنسان أخرسا، وبالتالي فتواصله مع الآخرين يكون بمثل هذه الإشارات.

5 . **الظرف** : كأن يكون الإنسان في مكان فيه غوغاء، ثم يمر صديق له بجانبه، ففي مثل هذه الحالة تكون التحية بالإشارة ويكون الرد عليها بالمثل.

ولابد من التذكير . هنا . بأن الإشارات لا تعني ما يصدر عن الإنسان من حركات فحسب، بل هناك أيضا « الأضواء الحمراء، والخضراء، وإشارات السير... ورنين الهاتف، والجرس، والتزمير... الخ » [12].

هذا بخصوص الإشارة، أما فيما يخص الكتابة فإننا نجد العلماء قد ذهبوا في ذلك مذاهب شتى . فهذا ابن سينا يضع الكتابة في المرتبة الأخيرة بعد العالم الخارجي بوصفه أساس التصورات الذهنية، وبعد الأصوات التي يعبر بها عن هذه التصورات. يقول : « لما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة انبعثت إلى اختراع شيء يتوصل به إلى ذلك... فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت ووقفت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتقطيعها معا، ليدل على ما في النفس من أثر. ثم وقع اضطرار ثان إلى إعلام الغائبين من الموجودين في الزمان، أو من المستقبلين إعلاما بتدوين ما علم... فاحتيج إلى ضرب آخر من الإعلام غير النطق فاخترعت أشكال الكتابة »[13].

أما الإمام الغزالي فيضع العلاقة نفسها التي وضعها ابن سينا وهي : العالم الخارجي، ثم التصورات الذهنية، ثم الأصوات، وأخيرا الكتابة . يقول : « اعلم أن المراتب فيما تقصده أربع، واللفظ في المرتبة الثالثة . فإن للشيء وجودا في الأعيان، ثم في الأذهان، ثم في اللفظ، ثم في الكتابة . فالكتابة دالة على اللفظ، واللفظ دال على المعنى الذي في النفس، والذي في النفس هو مثال الموجود في الأعيان »[14].

وأما ابن خلدون. على الرغم من أن الكتابة عنده تعبر عن الأفكار مثل التعبير باللسان سواء بسواء . فإنه يضعها في المرتبة الثانية بعد الأصوات . يقول : « ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهي معرفة الألفاظ ودلالتها على المعاني الذهنية، تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب، ومشافهة اللسان بالخطاب . فلابد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك. فأولا دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفها، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة...»[15].

وإذا جئنا إلى علم اللغة الحديث فإننا نجد رائده دي سوسير قد سلك المسلك نفسه الذي رأيناه عند علماء العربية، مع تأكيده على عدم إمكانية الفصل بين الأصوات والرموز الكتابية. يقول: « إن إقصاء الشكل المكتوب يشبه حرمان السابح المبتدئ من حزام النجاة . سيكون من الأفضل استبدال ما هو طبيعي بما هو صناعي، ولكن هذا مستحيل قبل أن ندرس أولا أصوات اللغة، والأصوات معزولة عن رموزها الكتابية ليست إلا مفاهيم مبهمة » [16].

أما كارول Caroll فيرى أن الكتابة شيء ثانوي، وهي تعتمد أساسا على اللغة المنطوقة[17]. وأما فندريس Vendryes فيؤكد على أن النص المكتوب لا يعد تمثيلا دقيقا للكلام [18].

نخلص من هذه الأقوال جميعها إلى أن اللغة أساسها أصوات منطوقة مسموعة،وما هذه الإشارات والرموز الكتابية إلا محاولة اختصار«الأفكار المجردة والعمليات المطولة بما يمكن أن يرمز إليها أو يدل عليها»[19]، ومن ثم فهي خارجة عن نطاق اللغة .

ثالثا : طبيعة الفكر ووظيفته

يعرف الفكر بأنه « احد العمليات أو الوظائف العقلية أو المخية التي تشمل أيضا الذاكرة، والانتباه، والخيال، واللغة » [20] . ويعرف كذلك بأنه « ما يحدث في خبرة الكائن العضوي ...حين يواجه مشكلة أو يتعرف عليها إلى حلها »[21] .

نستنتج من هذين التعريفين أن الفكر عبارة عن نشاط ذهني يقوم به الإنسان بغرض التعبير عن حاجات كامنة في نفسه، أو أشياء طبيعية موجودة في محيطه، أو رغبات خاصة يريد تحقيقها . وفي كل هذه الحالات يقوم الفكر بإثارة قضايا، ثم عقد مقارنات، ثم إصدار أحكام، ليصل في النهاية إلى نتائج.

ونوضح هذا الكلام بالمثال التالي : « لنفرض أن شخصا كان يجلس تحت شجرة تفاح، وأراد أن يقطف ثمرة منها . فلو كانت التفاحة في متناول يده ما وجدت مشكلة، ولو كانت التفاحة بعيدة عن متناوله لظهرت المشكلة، ولو حاول الحصول عليها بعصا أو بسلم يتسلقه لوجد الحل . فما يحدث في عقله حين واجه هذه المشكلة أو حين سعى إلى حلها هو ما يطلق عليه التفكير» [22].

الفكر إذن عمليات عقلية تتميز تميزا واضحا عن الأشياء الطبيعية. فلقد زود الله الإنسان بدماغ « يضمن تلاؤم الفكر مع الظروف في كل لحظة من حياة الإنسان، ويضمن اتصال الفكر بالواقع في غير انقطاع... » [23].

والدماغ هو عضو التفكير، ويتكون من تلافيف مخية تتدرج في نموها مع تدرج النمو الجسمي، وتبلغ أقصى درجات تطورها عند بلوغ الإنسان سن الرشد، وهي المرحلة التي تظهر فيها قدراته العقلية في التعامل مع ظروفه ومشاكله اليومية، وكذا قدراته في التأقلم والتفاعل مع البيئة المحيطة.

ولابد من الإشارة. هنا. إلى أن الدماغ " ليس هو في حد ذاته مصدر الفكر أو عامل حدوثه، بل هو أداة ذلك الحدوث . فطبيعة الفكر لا يعنيها الدماغ في حد ذاته، لأن هذا الأخير عاجز عن أن يوجد أية فكرة، وأن مصدر الفكر هو العالم المحيط بالإنسان، أو بيئته الطبيعية والاجتماعية . وطبيعة الفكر ليست مادية ولكنها نسخة منها أو انطباع عنها، غير أن هذا الانطباع ليس ذا طبيعة فوتوغرافية بل هي صورة ذهنية [24].

الفكر إذن ليس شيئا ماديا ملموسا، ولا يشغل أي جزء من حيز مادي معين . فهو قدرات ذهنية منظمة تتجه نحو تحقيق أهداف معينة، إنه بمثابة مرآة تعكس انطباعات الفرد حول الأشياء المحسوسة الموجودة في البيئة المحيطة.

رابعا : العلاقة بين الفكر واللغة :

أ. مصدر الأفكار :

طبيعي أن الله لم يفضل الإنسان على الكائنات الحية الأخرى باللغة فحسب، إنما ميزه كذلك بدماغ تصدر عنه نشاطات ذهنية قصد الاتصال المباشر بالواقع، أعني واقع العالم الخارجي الذي يمثل التصورات التي ترتسم في الذهن مباشرة عند الاتصال به.

ومما يجب معرفته هو أن عناصر العالم الخارجي غير محدودة، ومن ثم فإن الإنسان الذي أودع الله فيه هذا الجهاز (أي الدماغ) قادر على ترجمة هذه

العناصر بواسطة قدرات ذهنية تجعل منها (أي من هذه العناصر) عالما ماديا منعكسا في الفكر والوعي . وقد أثار ابن سينا هذه القضية بقوله : « إن الإنسان قد أوتي قوة حسية ترتسم فيها صور الأمور الخارجية وتتأدى عنها إلى النفس، فترتسم فيها ارتساما ثانيا ثابتا وإن غاب عن الحس، ثم ربما ارتسم بعد ذلك أمور على نحو ما أداه الحس. فإما أن تكون هي المرتسمات في الحس ولكنها انقلبت عن هيئاتها المحسوسة إلى التجريد، أو تكون ارتسمت من جنبة أخرى » [(25)].

نعم، إن أفكار الإنسان، أو بعبارة أدق التصورات الذهنية، أساسها المحيط الخارجي، أو البيئة الطبيعية والاجتماعية التي يتفاعل الإنسان معها . فمعلوم أن « النشاط الدماغي هو النشاط النفسي للحركات وحياة الفكر تصفو على حياة الدماغ،لأن حياة الفكر نقطة اتصال الفكر بالمادة . إن حياة الفكر هي التمركز حول الفعل الذي ينبغي تحقيقه،فهي إذن الاتصال بالأشياء عن طريق الدماغ » [(26)].

فعلا، المادة هي مصدر الفكر، وهذه المادة قد تكون طبيعية، وقد تكون من صنع الإنسان . فأما المادة الطبيعية فيمثلها المحيط الخارجي بوصفه مرتعا خصبا للفكر، ومادة للنشاط الإبداعي لدى الإنسان، وأما التي هي من صنع الإنسان فتتمثل في تلك الآلات البدائية والمخترعات العلمية الحديثة.

فالإنسان درج منذ القديم على التفكير في استعمال آلات تساعده على مجابهة الصعاب التي تواجهه في حياته اليومية، وأعطى لكل أداة إسما ومفهوما وغرضا، ثم استعمل هذه الأدوات في حرف وصنائع متعددة . وقد قيل « إن الإنسان هو المتمدن بالطبع، والتوحش دأب السباع، ولهذا المعنى توزعت الصنائع، وانقسمت الحرف على الخلق، فكل واحد قصر وقته على حرفة يشتغل بها، لأن كل واحد من الخلق لا يمكنه أن يقوم بجملة مقاصده، فحينئذ لا يخلو من أن يكون محال حاجاته حاضرة عنده أو غائبة بعيدة عنه، فإن كانت حاضرة بين يديه أمكنه الإشارة إليها، وإن كانت غائبة فلا بد له من أن يدل على محل حاجاته وعل مقصوده وغرضه، فوضعوا الكلام دلالة، ووجدوا اللسان أسرع الأعضاء حركة وقبولا للترداد » [(27)].

المادة إذن هي أول ما استرعى فكر الإنسان، وهي أول واسطة بينه وبين العالم، وبينه وبين المجتمع، وبواسطتها ارتقى درجات سلم التطور . إنها نتاج فكري، بل هي الفكر ذاته، والبيئات الغنية بالأشياء المصنوعة والمكتشفة يكون فيها مستوى الفكر على درجة عالية من الرقي .

غير أن اتصال الفكر بالمادة يحتاج إلى واسطة، فلِمَ لا تكون هذه الواسطة هي اللغة ؟ إن « كل لغة إنما هي أدوات حضرية . فلقد استعمل الجد الأول للإنسان العصا في الصيد، وقلد صوت الحيوان، ثم تلفظ بمسميات للعصا، وللصيد، وللطير . فالحياة تدور حول إشباع الحاجات، وهذا الإشباع يدفع إلى العمل، والعمل إلى اكتشاف الآلات أو إلى صنعها ثم ترقيتها . هكذا تكثر الاتصالات المجتمعية حول أعمال مشتركة، فتتجلى مختلف التعابير من إشارات ولغات ورموز » [28].

نخلص من كل هذا إلى أن المادة هي مصدر الفكر، وسبب وجود العلامات اللغوية . واللغة هي الأداة التي يتم بها التفكير، فهذا الأخير لا يمكن أن يتم دون لغة، واللغة لا يمكن أن تكون بمعزل عن الفكر، ومن ثم فالعلاقة بينهما هي علاقة تكاملية، ويمكن اعتبارهما بمثابة وجهين لعملية بسيكولوجية واحدة .

ب . كيفية حدوث العلاقة بين الفكر واللغة :

رأينا قبل قليل أنه لا يمكن أن تكون هناك أفكار مجردة قائمة بذاتها، بل لا بد من أداة تترجم بواسطتها هذه الأفكار، وكانت هذه الأداة هي اللغة، ومن ثم فإن هناك ترابطا قويا بين الفكر واللغة، وعلاقة وطيدة بينهما . فكيف تحدث هذه العلاقة يا ترى ؟

يقول السيوطي : « اختلف هل الألفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية . أي الصورة التي تصورها الواضع في ذهنه عند إرادة الوضع .أو بإزاء الماهيات الخارجية؟ فذهب الشيخ أبو إسحاق الشيرازي إلى الثاني وهو المختار، وذهب الإمام فخر الدين وأتباعه إلى الأول، واستدلوا عليه بأن اللفظ يتغير بحسب تغير الصورة في الذهن، فإن من رأى شبحا من بعيد وظنه حجرا أطلق عليه لفظ الحجر، فإذا دنا منه وظنه شجرا أطلق عليه لفظ الشجر، فإذا دنا وظنه فرسا أطلق عليه لفظ الفرس، فإذا تحقق أنه إنسان أطلق عليه لفظ الإنسان، فبان بهذا أن إطلاق الألفاظ دائر مع المعاني الذهنية دون الخارجية، فدل على أن الوضع للمعنى الذهني لا الخارجي » [29].

نفهم من هذا القول أن اللغة تتبع الأفكار وتكون معها جنبا إلى جنب . والمقصود بالأفكار . هنا . التصورات الذهنية التي ترتسم في الذهن في شكل معاني مترابطة . فالإنسان يرى الأشياء مجردة في العالم الخارجي، ثم ترتسم في ذهنه صور وأشكال تتعلق بهذه الأشياء، ثم يعبر عن هذه الصور والأشكال بأصوات لغوية، وبتعبير آخر يقرن بين الصوت والشكل والمعنى .

ونخلص من كل هذا إلى أن العلاقة بين الفكر واللغة تحدث مباشرة عند ارتسام الصورة في الذهن وارتباطها بمعناها . وبمعنى آخر هناك تلازم بين اللغة كأصوات وبين الفكر كتصورات .

خامسا : نظرة العلماء إلى العلاقة بين الفكر واللغة :

للعلماء آراء مختلفة أحيانا ومتناقضة أحيانا أخرى بخصوص العلاقة بين الفكر واللغة، ولا تزال قضية هذه العلاقة مثار جدل كبير بينهم .

فاللغة عند الفلاسفة مثلا لا يمكن فهمها إلا من خلال ارتباطها بالفكر . فهذا الفيلسوف الإنجليزي جون لوك John Locke يرى « أن الكلمات إنما هي علامات حسية على الأفكار، وهذه الأفكار هي معناها المباشر. فاللغة هي وسيلة المواصلات للفكر » [30].

وأما الفيلسوف الأمريكي ألستون Alston فيرى أن اللغة لا يمكن أن تحدث من غير أن تعبر عن أفكار، وأن هذه الأخيرة لا يمكن أن توجد بمعزل عن اللغة. يقول : « ... والأفكار لها وجود غير مستقل عن اللغة كما أن وظيفتها غير مستقلة عن اللغة أيضا . ولو أن كلاً منا أراد أن يحتفظ بأفكاره لاختفت اللغة.فنحن نصدر مجموعة من الدلالات العلنية عن أفكارنا لأننا نحتاج أن نوصل أفكارنا إلى الآخرين، ومن ذلك يكون للتعبير اللغوي معناه » [31].

وأما علماء النفس .وعلى رأسهم بياجيه Piaget ـ فيؤكدون كذلك على تطابق الفكر واللغة، غير أنهم يرون أن كثيرا من الظواهر النفسية لها أثرها الكبير على الظواهر اللغوية . « فالتذكر، والاسترجاع والتخيل، وتداعي المعاني، والإدراك،والانتباه، والحالات الوجدانية المختلفة، وغير ذلك من مسائل علم النفس،هي التي تفسر لنا كيف يتعلم الطفل اللغة كلاما ثم كتابة، وكيف يصوغ الإنسان عباراته ويكون جمله ليعبر عن أفكاره... » [32].

واللغة عند بياجيه تنمو مع نمو السلوك العام للإنسان منذ الطفولة وحتى سن البلوغ . فهي (أي اللغة) ليست « مجرد دليل على نفس الطفل وعقله، بل أنه يعدها من أهم الوظائف الرمزية التي يتعامل بها الإنسان مع محيطه المادي والاجتماعي . وبالرغم من أنه يعطي البنيان العقلي مركز الصدارة بالنسبة للبنيان اللغوي، فإن اللغة في نظره تساعد في تطور الإدراك عند الطفل ... » [33].

وأما بلومفيلد Bloomfield ولفيف آخر من السلوكيين فيرون أن اللغة عبارة عن وحدات صوتية تكيفها البيئة ولا دخل للأفكار فيها . واللغة « لا

تتعدى في رأيهم شكلا من أشكال الحافز والاستجابة للحافز . فمتكلم اللغة يسمع جملة أو يشعر بشعور معين فتحصل عنده استجابة كلامية، من دون أن ترتبط هذه الاستجابة بشكل من أشكال التفكير. فالاستجابة الكلامية مرتبطة بالحافز ولا تتطلب تدخل الأفكار » [34].

وقد ثار جدل كبير بين علماء النفس بخصوص هذه العلاقة إلى أن انتهى أحدهم وهو فيجوتسكي Vigotsky إلى أن هذه القضية مازالت مدار البحث، وكل ما قيل بشأنها لم ينته إلى نتيجة يقينية . [35]

وأما علماء اللغة فقد اختلفوا هم أيضا في نظرتهم إلى هذه العلاقة وتناولهم إياها . فهذا دي سوسير عندما عرف اللغة قال إنها نظام من الرموز التي تعبر عن الأفكار، ويوضح قوة الترابط بين الفكر واللغة بعقد مقارنة فريدة بين اللغة وقطعة من الورق فيقول : « ويمكن مقارنة اللغة بصحيفة من الورق : الفكرة وجه الورقة والصوت خلفها . لا يستطيع المرء تقطيع وجه الورقة من غير أن يقطع خلفها في الوقت ذاته . الشيء نفسه في اللغة فإن المرء لا يستطيع فصل الصوت عن الفكرة ولا الفكرة عن الصوت » [36].

أما اللغوي الأمريكي سابير Sapir فيشير صراحة إلى هذه العلاقة، ويرى أن اللغة تؤثر تأثيرا كبيرا في طريقة تفكيرنا، وهي التي تحديد طريقة تفكير وتصرف أي مجتمع من المجتمعات، بل إن المجتمع لا يستطيع أن يرى العالم إلا من خلال لغته [37].

وأما وورف Whorf فيذهب إلى أن اللغة « ليست وسيلة للتعبير عن الأفكار، بل إنها هي نفسها التي تتشكل تلك الأفكار. ونحن نقسم ما حولنا من العالم بموجب الخطوط التي ترسمها لنا لغتنا، أو كما يقول أحدهم : إن العالم يخلق بواسطة اللغة » [38].

وخلاصة القول فإن العلاقة بين الفكر واللغة ما تزال محل نقاش بين الفلاسفة واللغويين وعلماء النفس . وهي في الحقيقة قضية متشعبة، خصوصا فيما يتعلق بوجود أفكار من غير اللغة، كما هو الشأن في فنون الرسم، والنحت، والموسيقى، وغير ذلك من الفنون والعلوم التي تقوم على رموز غير لغوية.

ومهما يكن من أمر فإننا نرى « أن العلاقة بين الفكر واللغة علاقة تبادلية، لأن كلا منهما يعتمد على الآخر، فنحن لا نستطيع أن نتكلم بما لا نقدر أن نفكر فيه، ولا نستطيع أن نفكر بعيدا عن قدرتنا اللغوية» [39].

سادسا : العلاقة بين الفكر والمعنى :

إن العلاقة بين الفكر والمعنى هي جزء من العلاقة بين الفكر واللغة. فلقد رأينا قبل قليل أن الفكر مرتبط بالبيئة الطبيعية والاجتماعية ارتباطا مباشرا، فهو ينقل الظواهر البيئية ويرسمها على صفحة المخ ومن ثم يعمل الإنسان على فهم معناها بواسطة اللغة التي هي وسيلته الأساسية في تجسيد الفكر، وبالتالي تجسيد المعنى، وهذا الأخير ما هو « إلا ظاهرة لغوية وفكرية في آن واحد . فالصوت المنطوق به دون معنى هو صوت أجوف مبهم وأعجم لا يدخل في حيز اللغة... فالمعنى من هذه الزاوية ظاهرة لغوية لأنه يعبر عن الصورة الذهنية على هيئة تجريد وتعميم تحملها الأصوات والرموز المكتوبة، وهو من هذه الناحية عملية فكرية دون منازع » [40].

ولقد كان للعلماء آراء مختلفة بخصوص العلاقة بين الفكر والمعنى . فعلماء النفس مثلا يفرقون بين المعنى والمدرك الحسي والصورة الذهنية، وسبب ذلك . في نظرهم . أن المدركات الحسية مقيدة بالحالة التي هي عليها في الواقع، أما الفكرة فهي مجردة من هذه القيود . الشيء نفسه يقال على الصورة الذهنية، فهذه الأخيرة . بوصفها فكرة . تختلف عن الأصل من حيث خصائصه العامة، ذلك لأنه لو حاولنا معرفة الفرق بين الفكرة التي تدل عليها الكلمة أو (معنى الكلمة) وبين التصور الذهني، لاتضح أن هذا الأخير لا يمثل إلا جزءا بسيطا من المعنى الموجود في ذهن الفرد، وبمعنى آخر نجد أن التصور الذهني لا يعد ترجمة حقيقية للمعنى . « فتجارب المرء وخبراته الماضية التي ترتبط بكلمة أو جملة سمعها ليست مجرد سلسلة من المدركات الحسية تحضر في ذهنه صورا كما أدركها في الماضي، وإنما تثار في ذهنه معان لهذه الكلمة أو الجملة هي مزيج من كل ماله صلة بهما من تجاربه الماضية...فكلمة « بابا) » مثلا تعني الناحية الوجدانية التي تربط السامع بأبيه من سرور وسعادة، إلخ .. ولكن نـدَرَ أن يظهر هذا الوجدان في الصور الذهنية . ولعل هذا يوضح الفرق بين معنى الكلمة والصورة الذهنية التي تثيرها الكلمة » [41].

أما علماء اللغة فنظروا إلى هذه العلاقة من زوايا مختلفة، وكان لهم في ذلك نظريات متعددة نوجزها فيما يلي :

1. النظرية الذهنية : وتفسر المعنى على أنه فكرة ترتبط بالكلمة في ذهن المتكلم أو المستمع.

2 . النظرية السلوكية : وتضع المعنى ليس في الذهن ولكن في طريقة تجاوب المستمع معها.

3 . النظرية التجريدية : وتفسر المعنى على أنه فكرة تجريدية .

. الهوامش والمراجع :

1 ـ الشيخ أحمد رضا : مولد اللغة، دار الرائد العربي، بيروت 1983، ص26

2 - Nyrop (K):Grammaire historique de la langue Française,Paris Picard1899-1930,volume1p3

3 ـ عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب، تونس 1986، ص46.

4 ـ ابن جني : الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر (د.ت)، 33/1

5 ـ انظر : De Saussure:Cours de linguistique générale,ENAG,Reghaia1991,p33

6 ـ انظر : Jespersen(o):Language: its nature,développement and origin,London 1966,p23

7 ـ انظر : Robins(R.H):A short history of language,London1967,pp8- 11

8 ـ انظر : Caroll(J.B):The study of language,Harvard1966,p10

9 ـ انظر : Bloch(B) and Trager(G.L):Outline of linguistics analusisBaltimore1942,PP5-7

10 ـ وليد محمد مراد : تطور الجهود اللغوية في علم اللغة العام، دار الرشيد، دمشق 1986، ص219

11 ـ محمد عزيز الحبابي: تأملات في اللغو واللغة، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1980، ص59ـ60

12 ـ بسام بركه : الإشارة، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع30ـ31، صيف1984، ص 44

13 ـ ابن سينا : الشفاء، تحقيق م.خضيري، القاهرة 1970، ص 21

14 ـ الغزالي : معيار العلم، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بالقاهرة 1969، ص 35ـ36

15 ـ ابن خلدون : المقدمة، دار القلم، بيروت 1986، ص535

16. De Saussure : op.cit,p59

17. Caroll(J.B):Language and Thought,London1964,p3

18 ـ أنظر: فندريس : اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة 1950، ص404

19 ـ بسام بركه : مرجع سابق، ص44

20 ـ نوري جعفر : اللغة والفكر، مكتبة التومي بالرباط 1971 ، ص98

21 ـ محمد حسن عبد العزيز : مدخل إلى علم اللغة، دار النمر للطباعة، القاهرة 1983، ص84

22 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

23ـ وليد محمد مراد : مرجع سابق، ص222

24 ـ نوري جعفر : مرجع سابق، ص100 ـ 101

25 ـ ابن سينا : مرجع سابق، ص1

26ـ وليد محمد مراد : مرجع سابق، ص223

27 ـ السيوطي : المزهر في علوم اللغة، شرح وضبط محمد أحمد جاد المولى بك، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي دار التراث بالقاهرة (د.ت)، 1/ 36

28ـ محمد عزيز الحبابي : مرجع سابق، ص 75 ـ 76

29ـ السيوطي : المزهر 42/1

30 ـ أنظر : Malemberg(B): Les nouvelles tendances de linguistique,p.u.f,Paris1972,p19

31 ـ عبده الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1988، ص74

32 ـ المرجع نفسه ص74ـ 75، نقلا عن : Alston(W):Philosophy of language,pp22-23

33. رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة، مكتبة الخانجي بالقاهرة 1985، ص 138 ـ 139
34ـ بسام بركه : اللغة والفكر، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع 18 ـ 19 (شباط ـ آذار 1982) ص 65 ـ 66
35ـ علي زوين : منهج البحث اللغوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1986، ص 181
36ـ اظر فيجوتسكي : التفكير واللغة، ترجمة طلعت منصور، مكتبة الأنجلو المصرية، 1976 ص 73 وما بعدها .
37. De Saussure : op.cit,p181
38ـ انظر: Sapir(E):An introduction to the study of language york1991,p207
39. نايف خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، الكويت 1979، ص 217 .
40. كريم زكي حسام الدين : أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية 1985، ص 99.
41. نوري جعفر : مرجع سابق، ص 127.